التلقي والتأويل في النقد العربي المعاصر

أ. بن زحاف يوسف/المركز الجامعي - غليزان

ملخص:

يفتح التأويل بوصفه عملا نقديا الباب أمام الباحثين ليتناولوا النصوص من أي زاوية شاءوا، فالحرية تبقى أساس العملية كلها، وعلى الرغم من الاضطراب الحاصل على مستوى الممارسة التأويلية في نقدنا العربي، إلا أننا لا يمكن أن ننكر أن التأويل قد ساهم في توليد الأفكار العظيمة والرؤى الرائدة؛ في هذا الإطار يدور هذا المقال.

Résumé

Cet article veut démontrer comment l'interprétation, comme un outil critique ouvert, le domaine aux chercheurs pour étudier des textes suivant n'importe quelle approche. La liberté reste la base de tout le processus, et malgré les turbulences au niveau de la pratique interprétative dans la critique arabe, on ne peut pas nier que l'interprétation a contribué à la production de grandes idées et importantes visions.

OOO

هناك فوضى في الاصطلاح النقدي العربي المعاصر؛ فإذا كان الدور الأساس للباحث هو السعي وراء الأفكار يقنصها ويرتبها وينظمها وينسقها في شكل متكامل بحيث يجعل المقدمات تؤدي طبيعيا إلى نتائجها، فلقد أضيف إليه عبء آخر، هو إيجاد الصيغ اللفظية والمصطلحات الفنية التي تناسب هذه الأفكار، وتكون لها القدرة على عرضها دون قصور أو تشويه.

ولا ينبو مصطلح التأويل عن هذا المأزق؛ ففي الوقت الذي يميل البعض إلى استعماله بهذه الصيغة المجردة، يميل البعض الآخر إلى استعمال مصطلح التأويلية، ويميل البعض إلى استعمال مصطلح الهرمنوطيقا، وآخرون يفضلون مصطلح القراءة، وغيرهم يفضل مصطلح التلقي... إلخ.

والحقيقية أن هناك مصطلحات أخرى تدور في الفلك نفسه. ولئن كنا نتنزه عن سرد هذه المصطلحات جميعها، فذلك لأننا نريد أن ننزه القارئ

عن الاشتغال بالمصطلحات على حساب الأفكار والمعاني، سيما وأن هناك مثلا قديما يقول: لا مُشاحّة في المصطلح.

والمعضلة الأساس في هذا الحقل هي ضبط العلاقة بين المتلقي من جهة والرسالة الملفوظة إليه من جهة ثانية، والجو العام الذي ينظم الرسالة الملفوظة والمتلقي جميعا من جهة ثالثة.

فأنت تلاحظ إذن أن هناك ثلاثة متغيرات تحكم عملية التلقي والتأويل. وفي اعتقادي إن هذه المتغيرات الثلاثة هي المتغيرات الأسس، ولغيرنا أن يضيف إليها متغيرات أخرى، ولكننا نرجح أنه لا يفتأ يجدها متضمنة في إحدى تلك المتغيرات الأسس الثلاثة الكبرى التي أسلفنا الإشارة إليها.

ولكن ما يزيد هذه المعضلة تعقيدا أن هذه المتغيرات الثلاثة مرتبطة بعضها ببعض ارتباطا عضويا، بحيث يستحيل أن يدرس أي متغير في معزل عن المتغيرات الأخرى، وإن الهفوة التي يهفوها بعض الباحثين هي الانكباب على حلقة من هذه الحلقات الثلاث وإغفال الحلقات الأخرى. إن دراسة أي حلقة على حدة لا يكون إلا من منطلقات إجرائية مؤقتة، يفرض على الباحث فرضا أن يختبر نتائجه بعدها في الإطار الشامل لهذه المتغيرات في مجموعها.

وعليه يكون التأويل طريقة أو منهجا للفهم والتفسير والتقويم الجمالي، وليس نظرية نقدية مرتبطة بنظرية فلسفية أو إيديولوجية أو موقف فكري فلسفي متكامل من العالم، إذ يمكن أن يمارس التأويل أفراد أو نقاد أو دارسون يلتزمون مشارب ومواقف فكرية متباينة، وكل منهم يمارس عملية تأويلية للنصوص بما ينسجم مع موقفه أو توجهه الفلسفي والإيديولوجي.

إن أهم ما يتسم به التأويل في طريقة بنائه أنه نتاج تأمل، وإن إخضاع نص ما لعملية تأويل يعني منحه قيمة فعلية مسبقة إذ لا يمكن تأويل نص سطحي. والتأويل طريقة أفضل للفهم لأنه لا يكتفي بحدود الرؤية السائحة على السطح بل يسعى، لكي يكون تأويلا، إلى الغوص في الأعماق وقراءة ما يختبئ في ظلال الكلمات وما بين السطور وفي الفجوات المتروكة موضوعيا في أي نص أدبي([1]).

وعلى هذا الأساس يكون من حق الباحثين أن يتناولوا من أي زاوية شاءوا أي موضوع شاءوا، فالحرية تبقى أساس العملية كلها، وفي أحضانها

يمكن أن تولد الأفكار العظيمة والرؤى الرائدة، لا تستثنى من ذلك النصوص القديمة التي تحاول أن تضفي على نفسها قداسة وهمية تستمدها من قدمها وعتاقتها، ولا النصوص المعاصرة التي تحاول أن تتعالى على النقد بحجة الريادة وأنها سابقة لعصرها، وأن النقد لم يؤت من الوسائل التي تمكنه من فك ألغازها، إذ هي فوق النقد وفوق النظريات النقدية وفوق النقاد أنفسهم.

في أحضان هذه الحرية التي يشعر بها الباحث، والتي هي أساس نشاطه، يمكن أن نفهم العمل الذي قام به طه حسين في دراسة الشعر الجاهلي، أو في دراسة أبي العلاء، ويمكن أن نفهم العمل الذي قام به العقاد في دراسة الصحابة في عبقرياته، أو نصر أبو زيد في دراسة ابن عربي. فهذه الأعمال جميعا، وهي على سبيل المثال، وهي أيضا ككل عمل أدبي أو نقدي آخر، هي التي تشكل في الأخير وعي مرحلة زمنية بعينها، ونحن عندما نتأملها لا نجدها سوى امتداد لوعي فترة زمنية أخرى في تلك الفترة ([2])، ربما لتماثل التحديات والهموم، وربما لاشتراك الذوق وتماثله، وربما لأن أحداث الزمان تبقى هي هي في جوهرها، ولكنها تعرض نفسها في صور وأشكال مختلفة؛ ألم يقل الشاعر العربي القديم : هل غادر الشعراء من متردم ؟، فهذا الشاعر يفشي سرا خطيرا في حرفته، وهو أن المعاني التي يتناولها الشعراء عادة هي هي، فليس من جديد تحت الشمس، ولكن العبقرية تنسب للشاعر لكيفية عرضها وكيفية صياغتها. وقد قال النقاد في بيت الأعشى :

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شاو .. مشل .. شلول .. شلشل .. شول

إن العبقرية هنا ليست في: معنى ما سنقول، ولكن في: كيف سنقول([3]).

يغدو التأويل الأدبي إذن أداة فعالة لأنه أسلوب في الفهم، ولأنه حق يمتلكه القارئ يتصرف فيه كيفما يشاء، وأولى منه الناقد، لأن الناقد هو في الأخير قارئ محترف، إلا أن الأمانة العلمية، والتي هي في جوهرها دافع أخلاقي، تفرض عليه أن يعرض بأمانة فضاء النص المقروء وتوجاته المتعددة، يعرض أسسه التي يتأسس عليها، ويعرض أهدافه التي يتوخاها، ويعرض فنياته المبتكرة وفنياته المقلدة، يعرض ما الذي يريد أن يقول وما الذي لا يريد أن يقول، وما الذي يحمله على أن لا يقول. إن النقد في الأخير هو عمل أدبي ثان([4]) أو هو خطاب على خطاب كما يقول النقاد المعاصرون.

تنبع مشكلة التأويل من مشكلة المواضعة، فلكي يقع الكلام دلالة، يجب أن يكون بين المتكلم والمتلقي سابق عهد بالمواضعات اللغوية المستعملة بينهما، فإذا حاد المتكلم عن هذه المواضعات قليلا أو كثيرا، زاد احتمال عدم استيعاب المتلقي لكل ما يقال، ووجد نفسه مجبرا على ملء الفراغ الذي يتركه المتكلم عمدا أو قصورا أو تحايلا.

إلا أن هناك نوعا آخر من الكلام تتضح فيه دلالات العبارات وهي أجزاء تفاريق، إلا أن الدلالات الكلية للكلام في مجمله قد تغيب عن المستقبل، لا بسبب انتفاء المواضعة بين المتكلم والمتلقي على مستوى المفردات أو الجمل، ولكن بسبب أن المتكلم يعمد إلى استعمال لغة مفتوحة تحتمل الكثير من المدلولات. وسواء كان هذا الاستعمال عن قصد أو غير قصد، فإن هذا هو الواقع الذي نلمسه في أي نشاط لغوي، وهنا تغدو العملية التأويلية نشاطا طبيعيا لدى المتلقي يحاول من خلالها القيام بإنتاج المعنى الذي يغلبه على ظنه أن المتلقي يريد إيصاله.

على أن هناك نشاطا تأويليا من نوع آخر. وربما كان هذا النشاط أكثر أهمية من الذي قبله، وهو النشاط التأويلي الذي تغيب فيه قصدية المتكلم. إن المتكلم هنا ينشئ النص، ولكنه لا ينشئه عن وعي تام، فيقف على كل جزء من جزئياته، وكل دلالة محتملة من دلالاته، إنه ينشئه لهدف معين ولا شك، ولكن هذا الإنشاء قد يحمل في طياته معاني لا يلتفت إليها المنشئ نفسه. إن العملية برمتها هنا أشبه ما تكون بمغامرات اللصوص، مع الفارق بين المثلين طبعا. إن اللص مع حرصه على عدم ترك أي نوع من أنواع الآثار التي قد تدينه عند القضاة، تفوته بعضها، وقد يجبر على ترك بعضها الآخر، قد تكون بصمات الأصابع وقد تكون مواضع الأرجل، وقد تكون أي نوع آخر من أنواع الآثار، وهذه في الحقيقة هي المادة الخصبة الممتازة التي يشتغل عليها المحقق حتى يصل إلى بعض النتائج غير المتوقعة.

لقد كان المتنبي يقول عن شعره : اسألوا عنه ابن جني فهو أدرى به مني، وهو محق في ذلك، فالقارئ يرى في أغلب الأحيان ما لا يراه المؤلف، وابن جني باعتباره قارئا محترفا ومسلحا بأسلحة المعرفة يستطيع أن يستخرج من شعر المتنبي ما لم يتوقعه المتنبي نفسه. إن العلاقة بين الشعر والشاعر هي علاقة حبل وإلقاء كما تحبل وتلد النساء، أما علاقة الناقد بالشعر فهي علاقة

معرفية فاحصة مستقصية، إنها علاقة الطبيب بالجسد الذي يعرف أنسجته وأعصابه أكثر مما يعرف صاحب الجسد نفسه.

وفي عصرنا هذا، وبعد ألف عام، قدم لنا طه حسين أبا العلاء كما لم يقدم هو نفسه إلى الناس، وكما لم يقدمه عصره([5])، ألم يقل عنه معاصروه ومن جاء بعدهم : كان أبو العلاء حمارا لا يفقه شيئا ؟. فالقضية إذن قضية رؤية متكاملة والتفات إلى ما لا يلتفت إليه الناس عادة، ومحاولة لاستنطاق المسكوت عنه، واستكناه ما ليس له قدرة على التبلور والظهور، لقد كان أدب أبي العلاء ولا شك قارسا كالليمون، وأضاف إليه طه حسين بعقله وبلطف تأويله قليلا من السكر، فإذا هو شراب سائغ للشاربين، متعة للذوق وحفظا للصحة العقلية والنفسية. بل إننا نعتقد أن طه حسين لم يضف إلى أدب أبي العلاء شيئا، وكل ما قام به هو إبراز ما كان خافيا من عقل أبي العلاء وحقيقة شعور أبي العلاء.

فالنص إذن قد لا تكون له أي قيمة في عصره حتى يصادف الناقد الذي يتعامل معه بطريقة فريدة، وينظر إليه بنظرة مغايرة فيقف على ما لم يقف عليه غيره. نقول إن الناقد هنا يمارس قراءة متكاملة، إنه يمارس نشاطا تأويليا ويقدم خطابا على خطاب.

وبقدر ما يكون النشاط التأويلي خصبا وذا فعالية كبيرة في بناء النص وبعث الحياة فيه، قد يكون في المقابل معول هدم خطير لا يدانيه في الضرر سوء النص نفسه أو قصوره عن الإبلاغ، ويكون ذلك عندما يمارس التأويل سلوكاته الابتزازية النفعية الضيقة([6]). وربما تعرض أروع نص في التاريخ لمثل هذا الابتزاز، وهو القرآن الكريم، وكانت أبشع صور الابتزاز هي صور الابتزاز الطائفي، على اختلاف مشاربها : المتكلمين والمتصوفة والمتحدثين والباطنيين وغيرهم([7]).

ويذهب بعض الباحثين إلى أن أخطر خطوة يقوم بها التأويل الابتزازي هو سلخ النص عن الجو العام الذي تشكل فيه ([8])، سواء أكان هذا الجو ثقافيا أم اجتماعيا، أو كيفما كان ذلك السياق الذي يؤطر الدلالة ويحددها، ويضبطها داخل سياج يصونها ويصون فاعليتها.

ولقد ذهب عبد القاهر الجرجاني إلى مدى بعيد عندما اعتبر دراسة الشعر، وكيفيه تشكيله وتشكّله، مدخلا ضروريا لفهم العلاقات اللغوية التي

تحكم الخطاب القرآني وتؤدي إلى إنتاج الدلالة فيه، واعتبر التقصير في تحصيل العلم بالشعر، والتهاون في فهمه وتحليله وتذوقه، تقصيرا في حق الخطاب القرآني نفسه، وبخسا من قيمته ومنفذا خطيرا لسوء تأويله([9])، ذلك أننا " إذا كنا نعلم أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت، وبانت وبهرت، هي أن كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر، ومنتهياً إلى غاية لا يطمح إليها بالفكر. وكان محالاً أن يعرف كونه كذلك إلا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب، وعنوان الأدب، والذي لا يشك أنه كان ميدان القوم إذا تجاروا في الفصاحة والبيان، وتنازعوا فيهما قصب الرهان. ثم بحث عن العلل التي بها كان التباين في الفضل، وزاد بعض الشعر على بعض، كان الصادّ عن ذلك صادّاً عن أن تعرف حجة الله تعالى... ويصنع في الجملة صنيعاً يؤدي إلى أن يقل حفاظه والقائمون به والمقرئون له ... فمن حال بيننا وبين ما له كان حفظنا إياه، واجتهادنا في أن نؤديه ونرعاه، كان كمن رام أن ينسيناه جملة، ويذهبه من قلوبنا دفعة ... فسواء من منعك الشيء الذي ينتزع منه الشاهد والدليل، ومن منعك السبيل إلى انتزاع تلك الدلالة، والاطلاع على تلك الشهادة ".

فهذه إذن، شهادة في غاية الخطورة، تدعو صراحة إلى ضرورة استصحاب كل الخطابات الموازية التي من شأنها أن تكون، في حالة تعالقها بالخطاب المستهدف، كالمرايا التي تتيح غلغلة النظر إلى بعض الزوايا التي لا يتيحها النظر المباشر، والذي لا يأخذ بعين الاعتبار بنية الكلام مجردا لوحده. فالسياق إذن، لا يعني عند العرب تلك القرائن اللغوية التي تتمظهر داخل النص فقط، ولكن أيضا كل الملابسات التي تلابس إنشاء النص من خارجه. وإن هذه الملابسات لهي من الأهمية بمكان بحيث أنها تعتبر دلالات قائمة بذاتها، وحتى أنها تغني عن اللغة في حد ذاتها كما يقول الجاحظ : " والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وما تنوب عن الخط "([10])، ويستشهد لذلك بقول الشاعر :

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة مذعور ولم تتكلم
فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم

نفهم إذن من هذا الحديث للجاحظ أن المعنى لا يستنبط فقط من الوحدات اللسانية التي يتألف منها الخطاب، ولكن أيضا من كل الملابسات التي تلابسه من خارجه. وإحصاء هذه الملابسات وتوضيحها هو وظيفة الناقد

المتأول بامتياز. ولئن كان التأويل مظنة التزيد أو التحريف، فالقضية تبقى قضية ضمير، ولكن من حسن الحظ أن النشاط التأويلي باق أبدا، فتترادف الخطابات بعضها على بعض ويبقى القارئ في النهاية هو سيد الموقف على الإطلاق.

هوامش:

(1) د. صلاح صالح : مشكلات النقد التأويلي، بحث مقترح للمساهمة في مهرجان القرين الثقافي، الكويت، 2006.

(2) د. نصر حامد أبو زيد: إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء و بيروت، ط6، 2001، ص.149

3. د. منذر عياشي : مقالات في الأسلوبية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ط1، 1990، ص48.

(4) طه حسين : في الأدب الجاهلي، دار المعارف، ط17، 2001، ص33.

(5) انظر في هذا الصدد : ذكرى أبي العلاء، وصوت أبي العلاء، ومع أبي العلاء في سجنه لطه حسين.

(6) انظر على سبيل المثال : حسين مروة : النزعات المادية في الإسلام، وعبد الرحمان الشرقاوي: محمد رسول الحرية، وعلي إمام المتقين.

(7) عبد الرحمان بدوي : مقالات الإسلاميين دار العلم للملايين، ط1، 1996، بيروت، ص751.

(8) نصر حامد أبو زيد : النص والسلطة والحقيقة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط5، 2006، ص91.

(9) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، دار المعرفة، بيروت، ط3، 2001، ص24.

(10) الجاحظ : البيان والتبيين، تحقيق الحامي فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ط1، 1968. ص55